القوانين الفرنسية الخاصة بالحج و موقف الجزائريين منها 1930/1830

سعاد مصطفاوي- جامعة الجزائر2-أبو القاسم سعد الله

مقدمة:

يتفق المؤرخون أن الحركة الاستعمارية في القرن التاسع عشر و العشرين غنما هي امتداد للحروب الصليبية و انتقاما، ويُعتبر احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 حلقة من حلقات هذه الحرب، بل أهمها على الاطلاق بالنظر للدور الذي كانت تلعبه الجزائر في الذود عن الخلافة العثمانية حتى سميت بدار الجهاد ، لا يحتاج كلامي هذا إلى تدليل فخطابات الفرنسيين و على رأسهم الملك شارل العاشر بحاسة دينية باعتبار أن انتصار فرنسا هو انتصار للمسيحية كاملة ، ثم تجنيد الكنيسة لإمكانياتها و مشاركة كل الجنسيات الأوروبية في الحملة على الجزائر كلها تصب في نفس الفكرة ، و بعد سقوط الجزائر تجسّد هذا الطرح اكثر عندما بدأت الحملة الفرنسية تأخذ ابعادا دينية خاصة الاستحواذ على المقدسات الدينية و محاربة كل ما له علاقة بالدين و اللغة ، فاتبعت بذلك فرنسا سياسة دينية لا تقل خطورة عن السياسة العسكرية ، لما للدين الإسلامي من أهمية في حياة الفرد المسلم من جهة و الدور الذي يمكن ان يلعبه في مواجهة الاحتلال الفرنسي .و في مقالنا المتواضع هذا نسلط الضوء على احد اهم الشعائر الدينية التي حاولت فرنسا بموجب قوانينها الجائرة أن تمنع الجزائريين من أدائها و هي فريضة الحج ، فماهي القوانين التي سنّتها الفرنسية لمنع الحج ؟ وكيف كان رد فعل الجزائريين على هذه القوانين؟

1- الحج كوسيلة للضغط على الجزائريين :

لعب الدين الإسلامي العامل المحفز في قيام الثورات ضد الاحتلال الفرنسي قادها رجال دين مثل الأمير عبد القادر و الشيخ بوعمامة و بومعزة و غيرهم ، لذلك فقد أدرجت السلطات الاستعمارية عدة قوانين تصب في تقييد الحرية الدينية مثل القرار القاضي بالاستيلاء على كل الأوقاف الذي أصدره الجنرال كلوزيل بتاريخ 07 ديسمبر 1830 .ثم بعد ذلك جاء الدور على الحج و الذي رغم أن السلطات الفرنسية حاولت في بداية الأمر ان تستفيد ماديا ومعنويا من عملية الحج(التقرب من الأهالي عن طريق تسهيل عملية الحج و الاستفادة من ضرائب) إلا أنه سنة 1838 تم إصدار قرار يمنع الحج لأول مرة بسبب عدم رجوع الحجيج إلى الجزائر ، وبين سنوات 1860/1840 حاولت فرنسا مرة أخرى استدراك الأمر من خلال سن قوانين لا تسمح بحج إلا من هم فوق سن ال40 و ذلك لكسب ود السكان من جهة و عدم دفعهم للثورة من جهة أخرى لما تكتسيه هذه الشعيرة من أهمية في أركان الإسلام، وكانت تتم عملية الحج تحت مراقبة السلطات الاستعمارية و ذلك بارسال مراقبين في شكل مرافقين للحجاج حتى ينقلوا الأخبار ، و بتاريخ 20 جويلية 1845 أصدرت قوات الاحتلال مصادرة أسلحة الحجاج عند عودتهم خوفا من أي ثورة محتملة ، ولم تكتف فرنسا بهذه القوانين العقابية في حق الحاج فأقدمت بتاريخ 20أوت 1945 بسن قانون يلزم الحجاج بأخذ تصريح من أجل أداء فريضة الحج و هذا القرار الذي أدى إلى تناقص الحجيج يعتبر بداية لقرارات و قوانين

اخطر و أزجر سوف تطبقها فرنسا على الحجاج الجزائريين ، ففي 25 افريل 1853 أصدرت فرنسا قرارا يلزم على الحاج استخراج جواز سفر مع اثبات استطاعته المادية و الجسدية من أجل الحج .ليتبعه قرار وزاري صادر بتاريخ 16 أكتوبر 1958 يعقد من عملية منح جوزات السفر للحجاج. و يذكر الدكتور قبايلي الهواري في رسالة دكتوراه قيّمة قام بها حول الموضوع تحت عنوان" مسألة الحج في السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر " ان فرنسا تغيرت عقليتها و تعاملها مع الحجاج إلى الأسوء عندما لاحظت بعض التعصب على الحجاج الجزائريين العائدين من البقاع المقدسة التي اعتبرت الحج حسب مراسلة وزارية بتاريخ 26 سبتمبر 1864 أصبح مسألة سياسية و ليس دينية بالنسبة للجزائريين ، وهو ما يفسر تناقص منح جوزات السفر الخاصة بالحج – حسب الدكتور الهواري- سنوات الستينات من القرن التاسع عشر، و أصبح جواز السفر محل مقايضة بحسب الولاء و الطاعة لفرنسا .

ونظرا لأهمية الحج عند الجزائريين و ما يمكن أن ينجرّ عنه بسبب منعه بدون عذر أو حجة قوية فقد اهتدت فرنسا إلى العامل الصحي اين قامت بالتحجج بوباء الكوليرا الذي وقع سنة 1865 في الحجاز و في عز موسم الحج مما أدى بهلاك المئات من الحجيج ،من هنا تحركت فرنسا التي كانت تعتبر أن الحجاج القادمين من الحجاز يمكن ان يُهدّدوا الصحة العامة للمواطنين الفرنسيين عند عودتهم لديارهم ،فدعت لمؤتمر عالمي للصحة من أجل دراسة هذه الظاهرة والخروج بتوصيات تلزم الجميع ، و إذا كانت فرنسا ظاهريا تتحجج بالمرض و الأوبئة فإنها في الحقيقة كانت تسعى جاهدة من اجل خلق الظروف المناسبة و الدعم الدولي من اجل منع الحج الذي كانت ترى فيه تهديدا لوجودها كقوة احتلال في المنطقة ،هذا ما تؤكده الوثائق التاريخية حيث أن فرنسا و عكس بلدان أوروبا الأخرى بدأت في سن قوانين لمنع الحج و التضييق عليه حتى قبل ان يصدر المؤتمر الدولي للصحة رأيه في الموضوع .

من جهة أخرى لا يمكن باي حال من الأحوال ان نستثني تأثير العالم الإسلامي في الثورات او التمردات التي كانت تحدث في الجزائر بعد نهاية مقاومة الامير عبد القادر سنة 1848 ،حيث أن مقاومة المقراني في منطقة القبائل سنة 1871 و الشيخ بوعمامة في منطقة الجنوب الغربي سنة 1881 ، اعتبرتهما السلطات الاستدمارية بدعم و تأثير إسلامي مشرقي الذي كان يسعى للقضاء على الامبراطوريات الاستعمارية ، و لم تنتظر الادراة الفرنسية طويلا لتصدر عن طري ق الحاكم العام البير قيرفي في 6 جويلية 1880 منشورا [1]جاء فيه:" لا تنسوا في الحقيقة أنه غالبا ما يثور تعصب السكان الأصليين بعد حجهم لمكة، وهناك يتم انخراط بعضهم في حركات مناهضة لمهمتنا أو ينسجون علاقات مع محرضين ضد وجودنا يقيمون في بلدان مسلمة شرق القطر الجزائري " [2]

لذلك كانت الادراة الفرنسية تسعى لعرقلة أي تواصل بين الجزائريين و المشارقة ، نستشهد في هذ المقام بمقول الحاكم العام " دوغيدون" سنة 1874 الذي اعتبر أن الحجاج الجزائريين الذين يذهبون للحج يرجعون أكثر و تعصبا و رفضا للخضوع لإرادة فرنسا ،وقد صدر منع الحج سنة 1881 بعد ثورة بوعمامة و قيام ثورة عرابي في مصر أين صرح الحاكم العام ان هذا التمر(عرابي) سيخلق بوعمامة آخر ،حيث صدر أمر الغاء الحج في اللحظات الأخيرة للسفر بعد ان تم منح الجوزات و الاعلان عن الرحلة ، ومن ذلك تخوف الفرنسيين

من احتكاك الجزائريين بالحركة السنوسية في ليبيا التي أعلنت الحرب على الاحتلال الايطالي [3] فمن أصل 34 موسم حج بين 1880 و 1894 تم منع الحج لاكثر من 22 مرة و المناسبات التي يسمح فيها بالحج كانت لأصحاب الولاء و بني وي وي

واذا كانت فرنسا تتحجج بالامراض فإن السبب الاستعماري كان كذلك حاضرا في حساباتها خاصة بعد حدوث بعض الثورات ضد الاحتلال سواء في مصر او في ثورة المهدي في السودان حيث أن فرنسا كانت تعتبر ان نقل اخبار و انتصارات هذه الحداث من طرف الحجاج الذين يلتقون في مكة سيكون له الأثر البالغ في نقل تلك الاضطرابات إلى الجزائر .

2- قانون 10 ديسمبر 1894 المنظم للحج في الجزائر:

بعد سلسلة استهجانات صدرت من مختلف الدول و الشخصيات و خاصة الصحافة العربية حول التضييق غير المبرر على الحجاج الجزائريين و منعهم من أداء ركن من أركان الاسلام باعتبار أن فرنسا كانت الدولة الوحيدة التي تمنع الحج ، قامت فرنسا متحججة بالظروف الصحية و عن طريق الحاكم العام جول كامبون بإصدار مرسوم قانون ينظم عملية الحج في شكل مرسوم بتاريخ 10 ديسمبر 1894 ، نشرته جريدة المبشر التي كانت تعتبر بمثابة الجريدة الرسمية للأهالي ، جاء المرسوم في حوالي 34 مادة ، وجاء في ديباجته أن هذا المرسوم اعتمد في بنوده على تقرير الندوة الدولية للصحة المنعقدة في باريس في 03 مارس 1894 التي حذّرت من انتشار الأوبئة القادمة من المشرق و كذا تقارير حكام المقاطعات الثلاثة للجزائر .[4]

رغم ان قرار 10 ديسمبر 1894 كان يسعى ظاهريا لتنظيم عميلة الحج في نظر الفرنسيين ، إلا أنه وفي قراءة بسيطة لمحتوى مواده نجد فيه تمييز واضح و انتقاء لفئة معينة ستستفيد من هذ القانون خاصة الموالين لفرنسا و أصحاب المال ،دون غالبية الشعب المغلوب على امره، ففي مادته الأولى مثلا يشترط القانون " ان يمتلك الحاج قيمة التذكرة المقدرة ب1000 فرنك مع مراعاة مؤنة عائلته في حالة سفره ، مع ضرورة تسديده لمختلف الضرائب المستحقة تجاه الدولة..."أما في مادته الرابعة فيشترط القانون موافقة الحاكم العسكري على طلب الحج وهنا يجب أن تكون صحيفة سوابق الحاج خالية من أي عملية تخريبية او معادية أو شغب ضد فرنسا..

و لكن الغريب ان فرنسا و رغم إصدارها لهذا القانون إلا أنها منعت الحج في نفس السنة التي صدر فيها القانون ، و بالتالي فإن قضية الأمراض ما هي إلا ذر الرماد في الأعين لأنه في هذه السنة شهدت الأصوات المنادية للجامعة الإسلامية تصاعدا حادا و نشطت خاصة في المشرق الإسلامي بفضل دعوة السلطان عبد الحميد الثاني (1909/1876) .

و خلال فترة الحاكم العام شارل جونار شهدت عملية الحج فترات متذبذبة ، حيث بعد فترة قليلة من السماح بالحج بين سنتي 1901 و 1902 جاء المنع مرة أخرى فبعد أن دعا جونار رئيس فرنسا السيد

ميليراند بأن يأخذ بعين الاعتبار التأثير الإسلامي على الشعب الجزائري و أنه يتوجب الحذر من التوجه الإسلامي في المشرق و تأثيره على الجزائريين، قام سنة 1908 بإصدار منشور يمنع الحج بحجة الأمراض و الوبئة ، لكن الدكتور أبو القاسم سعد الله يقول انه في سنة 1908 لم نجد ما يتحدث عن الأوبئة بل كانت هناك ثورة تركية في هذه السنة و هذا ما أدى إلى تخوف الفرنسيين من الحجاج الجزائريين بأن يتأثروا بهذه الثورة و الاضطرابات الحاصلة في العالم خاصة الإسلامي [5]، و ما يؤكد كلامنا هذا هو انه في سنة المنع هذه حج من المغرب قرابة 2426 حاج ، فكيف يتم منع الجزائريين من الحج بسبب الامراض و يسمح للمغاربة ؟ و بالتالي فالسبب سياسي بحت و هو الخوف من الجزائريين الذين قاموا في هذه السنوات خاصة ابتداء من سنة 1911 بهجرات كبيرة نحو المشرق بلغ عددهم حوالي 50 الف جزائري في الشام و 10 الاف في فرنسا مما أدى بفرنسا إلى مراجعة سياستها بخصوص الهجرة لتصدر قرارا بمنع الهجرة قبيل الحرب العالمية الأولى و يدخل منع الحج في هذه الاستراتيجية الشاملة لحصار الجزائريين عن العالم العربي و الإسلامي.

ويعتبر الفرنسيون ان الدعم الذي تلقاه الليبيون في ثورتهم ضد الايطاليين من طرف الجزائريين هو نتيجة تأثّرهم بدعوة الجامعة الإسلامية للتخلص من الهيمنة الاستعمارية و التي انعكست كما يقول الدكتور سعد الله على أرض الواقع على شكل ثورات قادها رجال الدين مثل ثورة عين التركي سنة 1901 و ثورة عين بسام سنة 1906 و ثورة الأوراس ثم التوارق كلها كانت ثورات دينية متأثرة بالدعاية الإسلامية[6] ، كل هذا جعل السلطات الفرنسية تسعى جاهدة لعزل الشعب الجزائري عن باقي العالم الإسلامي ، خاصة بعد أن تأكدت بأن هاك من الجزائريين من يذهبون إلى الحج ثم ينخرطون في الجهاد مثلما حدث مع علي بن محمد بن الترجمان الذي ذهب إلى الحج ثم صادف الحرب الروسية العثمانية والتي شارك فيها و تم القاء القبض عليه ثم سجنه في روسيا الى غاية وفاته سنة 1771، أو الحاجين اللذين ذهبا للحج وفي ليبيا انخرطا في الثورة مع الليبيين ضد الاحتلال الإيطالي [7] إن مثل هذه الأحداث و مشاركة الجزائريين في مسعى التحرر ضد الاحتلال كانت كثيرة و تأثير الحج عليها واضحا، مما جعل السلطات الاستعمارية تفنن و تتعنت في اصدرا القرارات التي تمنعه او تؤطره حسب الظروف .

ففي سنة 1912 أصدرت فرنسا قرارا يمنع السفر و الهجرة عموما و ليس للحج فقط و ذلك بسبب الهجرات الجماعية الكبيرة التي شهدتها الجزائر خاصة نحو المشرق التي كانوا يعتبرونها الخلافة الإسلامية و هروبا من بطش و سياسة الاستعمار الإرهابية.

3- قررت فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى أن تبني دار في الحجاز سميت بدار الضيوف من أجل استقبال الحجاج الجزائريين و تأطيرهم و ابعادهم عن تأثير الدعاية العثمانية الألمانية و لم تأذن لهم إلا بعد قيام ثورة الشريف حسين و ارسال بعثة دبلوماسية للحجاز من اجل التأكد من ابعاد الجزائريين عن التأثير العثماني . ومن ضمن ما جاء في خطاب الحاكم العام أمام البعثة انه سوف يعاقب الحجاج الذين يثبتون ولائهم لغير فرنسا[8]

4- **رد فعل الجزائريين على هذه السياسة :**

مثلما كان عليه الحال بالنسبة للاحتلال الذي قوبل برفض مطلق من قبل الجزائريين و تجسّد ذلك في شكل مقاومات شعبية متعددة مثل مقاومة الأمير عبد القادر،و الشيخ بوعمامة .... و رد فعل الجزائريين العنيف ضد السياسة التنصيرية من خلال مواصلة تعليم الدين الإسلامي سرا و علانية و وصل الأمر إلى حد ارسال أبنائهم للتعليم في تونس و المغرب و الحجاز ، كان كذلك موقف الجزائريين من محاولة منع الحج قويا إذ و رغم هذا المنع الذي تكرر لسنوات و بحجج متعددة إلا أن الجزائري لم يتراجع عن التوجه نحو أقدس بقاع الأرض و أطهرها و أكرمها ، فكان الجزائريون يحجون سرا ، و يشترون جوزات سفر مزورة ، كما استعملوا حتى الدراجات الهوائية و الدواب و سيرا على الأقدام ، فالحج بالنسبة للمسلم عموما و الجزائري خصوصا هو رحلة العمر ففيه التمني بغسل الذنوب و التوبة النصوح إضافة إلى الوقار و القيمة التي يعطيها الحج للفرج في مجتمعه حيث يصبح من الثقاة و المؤتمنين ، لذلك فالحج كان امنية كل جزائري باختلاف الوضعية الاجتماعية و السن ، فنجد ان الجزائري يقترض أو يجمع المال على ساب ضروريات حياته طيلة سنة كاملة أو سنوات من أجل القيام بفريضة الحج ، وهذا ما لا حطناه أنه رغم الظروف القاهرة و العوز و القوانين الصارمة و المثبطة التي سنّتها فرنسا إلا أن الجزائريين لم يتوقفوا عن القيام بفريضة الحج طيلة التواجد الفرنسي في الجزائر.

الهوامش:

[1] Circulaire n° 22 du gouvernement général d'Algérie (GGA) du 6 juillet 1880, Archives d'Outre
Mer (Arch. OM), GGA, 16H84 -

[2] - Luc Chantre, Se rendre à La Mecque sous la Troisième République Contrôle et organisation des déplacements des pèlerins du Maghreb et du Levant entre 1880 et 1939, Cahiers de la Méditerranée78 | 2009 Migration et religion en France (Tome 2) p4

[3]- قبايلي الهواري: الحج في السياسة الاستعمارية الفرنسية، اشراف الأستاذ بوعلام بلقاسمي رسالة دكتوراه ،جامعة وهران، 2014/2013

[4] -Gouvernement Général de l'Algérie , Règlement général sur le prérèglage de la meque , (Extrait dujournal officiel le Mobacher), ALGER 1895 .

[5]- أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية ، الجزء2 ، م و ك ،ص 107

[6]- أبو القاسم سعد الله ، نفسه، ص 109

[7]- قبايلي الهواري: المرجع السابق

[8]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 254